الماثلة بين السطور. وقبل أن نبرهن على هذه «النزعة» نلقي حكما جديدا: إن ضباب الوعي في علاقته مع الواقع وحركته ينعكس كضباب جديد في البناء الروائي لهذا الواقع، إذ ان اتساق العلاقات الروائية لا يتحقق إلا في حقل الاتساق العام لمفهوم العالم لدى الكاتب. وقد نقول لنا سحر: إن ضباب الوعي لا وجود له، فالمرأة تعاني من اضطهاد الاحتلال ومن اضطهاد الرجل أيضاً. هذا القول صحيح، لكن صحته تستدعي بناء رواية أخرى، أو تستدعي بناء رواية اشكالية واحدة، أو على طرح جملة اشكاليات ناقصة تتوحّد وتكتمل في إشكالية واحدة. كيف تتجلى «النزعة النسوية» في عمل سحر خليفة؟

– «قضية المرأة جزء أساسي من قضية الوطن، يحلون عقدهم على حسابي فاتعقد وأعقدهم معي، والحلقة اللانهائية تدور تدور، وندور معها» (ص ١٧).

– «الرجل العربي ما زال مريضاً، منفصما منقسما يرغب في شيء ويطيق آخر... مشدود إلى الماضي ويتغنى بالمستقبل. هو ضحية كالمرأة تماما. لكن مرضه أخطر لأنه الأقوى والمتجبر» (ص ١٩).

– «أنا لن أعمل على تنمية مجلة يقطف ثمارها الرجل» (ص ٢٥٧).

– «منذ بداية عصركم وأنا أعيش لغيري ولا أعيش لنفسي. طبخت فأكلتم، زرعت فقطفتم، حملت بذوركم في بطني وسقيتها غذاء عيني وأسناني واشتداد عضلي. وحين تتلقف أيديكم المولود يحمل اسمكم بدل اسمي...» (ص ٢٦١).

نقرأ في هذه السطور «موقفا» من الرجل، تتداخل فيه أحكام الكاتبة مع أحكام شخصياتها الروائية، حتى لا نستطيع التمييز بينهما، أضف إلى ذلك أن هذا الموقف ذاته غير واضح، يقترب من الموضوعية حينا ويفرق في الذاتية حينا آخر، وكما قلنا فإن نوسان الموقف بين الغموض والوضوح يعيد ذاته في بناء الرواية فنيا. لا أودّ أن أناقش هنا مسألة تحرر الرجل والمرأة، على أية حال : من يحرر من؟ فالرجل لا يحرّر المرأة لأنه يتحرر معها، أي أن التحرر لا يبدأ بالرجل وينتهي بالمرأة بل يتحقق في تحرّر المجتمع ككل، أو يتحقق في سيرورة النضال الوطني الديمقراطي التي يساهم فيها الرجل والمرأة. مع ذلك فالكاتبة لا تبدأ من المجتمع بل من تعارض «الذكورة» و «الأنوثة»، وتقابل «سيطرة الرجل» مع «النزعة النسوية». ذكورة ونسوية، انغلاق مقابل انغلاق، أو «عنصرية تطرد أخرى». في حدود هذا الوعي، يتحول تحرر المرأة في «عباد الشمس» إلى خطاب ايديولوجي مفتوح (ضباب الوعي في انكسار الرواية)، إلى قول لاروائي لأنه في صراحته قائم خارج الرواية، بمعنى آخر: إن عدم تملك المفهوم الصحيح لسيرورة التحرر الاجتماعية كسر الرواية فنيا ودفع بحركتها الروائية إلى مستوى أيديولوجي مباشر. كيف تم ذلك؟

إن إشكالية المرأة التي أقحمتها الكاتبة في الرواية، تحولت إلى اشكالية جديدة – ايديولوجية، ولأنها ايديولوجية فقد خرجت عن حركة الرواية ووصلت إلى المستوى الذي يجب عليها الوصول إليه وهو : مستوى الميلودراما. فالاشكالية قائمة روائيا في وضع «نوار» و «سعدية» اللتين تشكلان علاقتين صحيحتين في إشكالية الرواية الاساسية، أما